

افصل الثانى

أدينا والحياة فى ظل الإسلام

— الإسلام والشعر

— الحضرة



الإسلام والشعر

قال الأقدمون :

« إن الشعر نكّدتْ بابه الشر ، فإذا دخل
في الخير ضعُف ولان . هذا حسان بن ثابت :
فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام
سقط شعره » .

الشعر والشعراء لابن قتيبة

وقالوا أيضاً : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح
منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب
وتشاغلوا بالجهاد ، وغزوا فارس والروم ،
ولُهِيت عن الشعر وروايته » .

طبقات الشعراء لابن سلام

ويقول تراثنا : إن الشعر كان سلاحاً من أمضى الأسلحة
في المعركة بين الوثنية والتوحيد ، وأنه ظل
محتفظاً بكل سلطانه على وجدان العرب ،
لم يعطله اشتغالهم بالفتوح ، ولم يفقد البيان
سحره في قوم آمنوا بدينٍ ، معجزته بيانية
باهرة .. » .

ظهر الإسلام : وللشعر في المجتمع العربي الأصيل هذه المكانة الهامة التي عرفناها ، وللشعر في قومه تلك المنزلة العالية التي ينهض فيها بالقيادة الوجدانية . ونقرأ تاريخنا الأدبي ؛ فتلقنا أحكام شائعة ومقررات مفروضة ، ظلت توجه ذوقنا وتسيطر على فهمنا لمدى قرون . فإذا فينا اليوم من لا يزال يردد ما قرره نقاد القرنين الثاني والثالث . من أن الشعر هانت مكانته وتعطلت وظيفته ، منذ وقف الإسلام منه موقف العداء ؛ ونزلت فيه آية الشعراء :

« والشعراء يتبعهم الغاؤون » ألم تر أنهم في كل واد يهيمنون .
وأنهم يقولون ما لا يفعلون » .

وراجت فينا أقوال تؤيد هذا الحكم أو تعلله ، منها ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قبحاً خيراً له من أن يمتلئ شعراً »^(١) ومنها قولة الأصمعي : « إن الشعر نكد بابنه الشر ، فإذا دخل في الخير ضعف ولان . هذا حسان بن ثابت ، فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره »^(٢) .

ومنها أن الشعر فقد تشجيع الملوك ، وامتحن برقابة صارمة على الشعراء جعلت عمر بن الخطاب يزجر حسان بن ثابت حين سمعه ينشد الشعر في مسجد الرسول ، ويسجن الخطيئة في هجائه للزبرقان بن بدر ، وينذر النجاشي الحارثي بقطع لسانه ، عندما هجا بني العجلان^(٣) .

ومنها أن الشعر فقد استجابة الجمهور الذي انصرف عن الشعر بالدين واشتغل عنه بالفتوح الإسلامية ؛ ويروون عن عمر بن الخطاب أنه قال : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزوا فارس والروم ؛ ولهيت عن الشعر وروايته »^(٤) .

(١) ابن رثيق : العدة ١٢/١ ومعه (الشعر والشعراء : ١٢٦/١) معارف .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٣٠٥/١ معارف . (٣) الأغاني : ٤ / ١٤٤ .

(٤) طبقات الشعراء لابن سلام : ص ١ ط بريل .

وانظر الدكتور طه الحارثي في (تاريخ النقد) ص ٤٧ .

والدكتور شكري فيصل في (تطور الغزل) ص ١٨٢ ط دمشق .

ولو صح أن الحياة استغنت في تلك الفترة الثورية الجادة المؤمنة . عن الشعر والشعراء . لكانت القاضية . إذ يكون ذلك شاهداً على أن لا مكان للأدب في مجتمع جاد نائر مناضل .

فهل كان هذا صحيحاً ؟

لن يكفي هنا أن نقول إن آية الشعراء إنما لعنت المضللين منهم والكاذبين ، واستثنت الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وإن هذا هو ما فهمه الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته ، وإلا لما استحل نبي الإسلام لنفسه أن يستصني له شاعراً يقول وروح القدس معه ، وأن يخلع برده على شاعر كان قد أهدر دمه ، وهو كعب بن زهير ، بعد أن أنشده . بأنت سعاد ^(١) ، وأن يدعو للنايعة الجعدى الأليفى الله فاه عندما أنشده رائيته ، وأن يستنشد الشعراء ، ويعجب بمرأى الخنساء . وبيت لطرفة ، وأبيات لقس بن ساعدة ، سمعه صلى الله عليه وسلم ينشدها في سوق عكاظ قبل المبعث . فهذا - ومثله كثير - قد يرد على من أساءوا فهم موقف الإسلام من الشعر . وظنوا أن الشعراء فقدوا تشجيع الدولة الجديدة ، لكنه لا يكفي لدفع الدعوى الخطيرة ، بأن الشعر أضاع مكانته وحُرِّم جمهوره ، وفقد بالإسلام سلطانه على الجماعة ، منذ استقبلت عهد الإيمان والجهاد . .

ونريد لنذكر معه ما روى في (السيرة النبوية لابن هشام) عن جزع قريش حين علمت أن الأعشى « خرج يريد الإسلام ، فترصدت له في الطريق وما زالت به ، ترهبه وترغبه حتى ثنته عن مقصده إلى حين ^(٢) .

« فهل كان هذا الجزع إلا خوفاً من سلطان الشعر وتقديراً لخطر تأثيره على الرأي العام ؟ وهل كانت قريش تبحث بعينها أمر هذا الأعشى أولاً أنه شاعر ؟ وفي الخبر أن « عبد الله بن رواحة » قال : « مررت بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في نفر من أصحابه فأضرب القوم : يا عبد الله بن رواحة ! فعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاني ، فانطلقت إليه مسرعاً فسلمت فقال : " ها هنا " ! فجلست بين يديه . فقال كأنه يتعجب من شعري : " كيف

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٢٠ : ٢١ ط أوربا . مع (السيرة النبوية لابن هشام) وطبقات الصعابة .

تقول الشعر إذا قلت ؟“ قلت : أنظر في ذلك ثم أقول . قال : فعليك بالمشركين »^(١) . وفيه كذلك . أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال للأَنْصار يستنفر الشعراء منهم للجهاد باللسان : « ما يمنع قوماً نصرُوا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ » فقام له منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وقد قال فيهم رسول الله : « هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل » فهل كان هذا إلا تعبئة وجدانية تقدر خطر الشعر في المعركة ، وتدرك أثره العميق في نفوس الجماعة ؟

وفي (السيرة لابن هشام) أن عطارداً بن حاجب بن زرارة . قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم ، في أشرف من بني تميم منهم « الأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمر بن الأهتم » لمفاخرة النبي صلى الله عليه وسلم . فتقدم خطيبهم « عطارداً » فخطب ، فانتدب الرسول « ثابت بن قيس الخزرجي » للرد عليه . ثم قام شاعرهم « الزبرقان » فأنشد قصيدته التي يقول فيها مفاخراً :

نحنُ الكرام فلا حى يُعادِلُنَا منا الملوكة . وفيها تُنصَبُ البيعُ
فبعث الرسول إلى « حسان بن ثابت » - ولم يكن حاضراً بالجلس - فجاء وأنشد يرد على « الزبرقان »^(٢) :

إن الذوائب من فخر وإخوتهم قد بينوا سنةً للناس تُتبع
فلما فرغ من إنشاده التفت الأقرع بن حابس إلى أصحابه وقال :
« وأبى . إن هذا الرجل لمؤتَى له : لخطيبه أخطبُ من خطيبنا ، وشاعره أشعر من شاعرنا . ولأصواتهم أحلى من أصواتنا » ثم أسلموا جميعاً^(٣) .
وللخبر دلالة الصريحة على خطر هذا الأدب في المجتمع المشغول بالدعوة الكبرى المحمدي بالنضال بين الوثنية والتوحيد : فهؤلاء الذين جاءوا للمفاخرة بسلاح القول شعراً ونثراً ، لم يكادوا يصغون إلى خطيب الرسول وشاعره ، حتى أدركوا أبعاد الموقف ، فقال قائلهم : إن هذا الرجل لمؤتَى له . . ثم أسلموا طائعين . .

(١) طبقات ابن سلام : ٥٥ ط أوربا .

(٢) العدة : ١ - ١٢ .

(٣) ابن هشام : السيرة . عام الوود : ٢١٢/٤ ط الحلبي .

وفي حديث السير والمغازي ، نقرأ أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث في السنة الثانية للهجرة ، سرية عمر بن عدى الحطمي إلى عصماء بنت مروان « وكانت تعيب الإسلام وتؤذى النبي وتحرض عليه وتقول الشعر » (١)

وفي ترجمة « كعب بن زهير » أنه لما بلغه أن الرسول أهدر دمه اشعر قاله . استطير ولفظته الأرض . فقدم على الرسول متنكراً وهو متلثم بعمامة فقال : « يا رسول الله ، رجل يبائعك على الإسلام » وبسط يده وحمر عن وجهه وقال : « بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، هذا مكان العائذ بك . أنا كعب بن زهير » فتجهمتها الأنصار وغلظت عليه لما ذكر به رسول الله في شعره ، ولانت له قريش وأحبوا لإسلامه وإيمانه . فلما آمنه الرسول وأنشده مدحته . بانث سعاد . إلى قوله :

في فتية من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا : زولوا
زالوا ، فما زال أنكاس ولا كشف يوم اللقاء ، ولا سود معازيل
لا يقع الطعن إلا في نحورهم وما بهم عن حياض الموت تهليل

نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى من عنده من قريش كأنه يقول : اسمعوا
حتى إذا قال « كعب » معرضاً بالأنصار لغلظتهم :

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرّدت السود التنابيل !
قامت قائمة الأنصار ، فلم يهدأ غضبهم حتى قال فيهم « كعب » مصاحفاً
بشعره ما أفسد : (٢)

من سره كرم الحياة فلا يزل في مقنب من صالح الأنصار
الباذلين نفوسهم لنبيهم يوم الهياج وسطوة الجبار
يتظهرون كأنه نسك لهم بدماء من علقوا من الكفار

فهل كان دم « كعب » يهدر لشعره قاله ، لو أن الشعر فقد سلطانه ونقوده ؟
أو كان الأنصار يغضبون لبيت قاله فيهم في بردته ، لو أن سلاح الشعر قد فُلَّ
بالإسلام ؟

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى - ١٨/٢ ط بريل .

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام : ٢٠ ، ٢١ ط أوروبا . والشعر والشعراء : ١٥٥/١ معارب

ألا ما أشبه الليلة بالبارحة ! في الجاهلية هجا « بشر بن أبي خازم » سيد العرب « أوس بن حارثة » فقالت له أمه سعدى : إنه لا يغسل هجاءه لك إلا مدحُه .

وهذا « كعب » يهجو الأنصار ، فما تزال قريش به حتى يمدحهم ، ليصلح بشعره ما أفسد !

و « ابن هشام » قد أفرد في (السيرة) فصلاً خاصاً لما قيل من الشعر في يوم بدر^(١) كما أفرد فصلاً آخر لما قيل من الشعر في يوم أحد^(٢) وكذلك فعل في ذكر الأسباب التي دعت إلى فتح مكة^(٣) ثم ظل يتتبع أقوال الشعراء في الصراع المرير بين الشرك والإسلام ؛ إلى آخر عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . ولقد يكفي هنا أن نستشهد بقصيدتين ، نقدمهما دليلاً يدحض ما قيل عن كراهة الإسلام للشعر ، واشتغال المسلمين عنه بالجهاد ، وحرصهم على أن يطرحوه مع الجاهلية التي ذهبت إلى غير رجعة .

القصيدة الأولى ، للشاعرة القرشية « قتيلة بنت الحارث » أخت النضر بن الحارث وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أهدر دمه فقتل صبراً ، وهو من أفلاذ أكباد قريش^(٤) . فقالت أخته « قتيلة » تبكيه :

يا راكبا إن الأثيل ^(٥) مَظِنَّةٌ	من صبح خامسة وأنت موفقٌ
أبلغ بهاميتاً بأن تحيةٌ	ما إن تزال بها النجائب تخفق
منى إليك ؛ وعبرةٌ مسفوحة	جادت بواكفها ، وأخرى تخنق
هل يسمعننى النضرُ إن ناديتُه	أم كيف يسمع مبيت لا ينطق
أحمد ؛ يا خير ضنء كريمه	في قومها ، والفحلُ فحل مُعْرِق
ما كان ضرك لو مننت وربما	منّ القى وهو المغيظ المحنق
أو كنت قابلَ قذية فلينفقنْ	بأعز ما يغلو به ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابةٌ	وأحقهم ؛ إن كان عتقٌ يعتق

(١) السيرة : ٨/٣ - ٤٥ ط الحلبي . (٢) السيرة : ١٣٦/٣ - ١٧٧ .

(٣) السيرة : ٣١/٤ - ٤٠ . (٤) السيرة : ٣ - ٢٩٣ .

(٥) موضع قرب المدينة بين بدر ووادي الصفراء ، به قتل « النضر بن الحارث » صبراً .

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه لله أرحامٌ هناك تَشَقَّقُ
صبراً يقاد إلى المنية متعباً رسفَ المقيّد وهو عانٍ موثق
قال ابن هشام : فيقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه هذا الشعر
قال : « لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه » (١) !

والقصيدة الثانية لعمر بن سالم الخزاعي ، جاء بها « ابن هشام » بين عدد
من القصائد ، في مستهل « ذكر الأسباب الموجبة المسير إلى مكة » قال :
« وكانت قريش قد تظاهرت مع بني بكر على خزاعة ، وأصابوا منها
ما أصابوا ، ونقضوا "عهد الحديبية" بما استحلوا من خزاعة ، فقدم عمرو على
رسول الله بالمدينة ، وكان ذلك لما هاج فتح مكة ، فوقف عليه صلى الله عليه وسلم
وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس ، فقال مرتجزاً :

يا ربّ إني ناشدُ محمدًا
خلفَ أئينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولداً وكنا والدا
ثُمّتَ أسلمنا ، فلم نزرع يدا
فانصر هداك الله نصرأ أعتدا
وادعُ عبادَ الله يأتوا مدّدا
فيهم رسول الله قد تجردا
إن ميم خسفاً ، وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجرى مُزبدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقلك المؤكدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذلُّ وأقلُّ عددا
هم يبتئونا بالوتير هُجّدا
وقتلونا رُكّعاً وسُجّدا

قال ابن إسحاق : « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نُصِرْتَ يا عمرو ابن سالم" .

« ونهض يتجهز لفتح مكة ، وكان قبل ذلك يطيل من صبره على قريش .
لعلها ترجع عن غيها فيما نقضت من ميثاق . . » (١)

° ° °

ولو أن الرسول قد فهم من « آية الشعراء » مثل ما فهمه أولئك النقاد الذين اتخذوها شاهداً على أن القرآن قد ناصب الشعر العداء، لكان إصغاؤه صلى الله عليه وسلم إلى الشعراء ، وتشجيعه لهم ، وندبه إياهم لنصرة الدعوة ، غير مفهوم من نبي مبعوث بدين يقف من الشعر موقف العداوة ! ولكان مسلكه عليه الصلاة والسلام، حيال حسان وكعب بن زهير ، وعبد الله بن رواحة، وغيرهم ممن خاضوا المعركة إلى جانبه بألسنتهم ؛ مناقضاً لموقف دعوته من الشعر !

ولكن آية الشعراء فُهمت على غير وجهها الصحيح ، ولم يخطر ببال هؤلاء النقاد ؛ أن يلتفتوا إلى موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من الشعر ، قبل أن يحرموا بعداء الإسلام للشعراء .

ثم إن آية الشعراء ، لا يجوز منهجياً أن تؤخذ مستقلة عن آيات أخرى من القرآن ذكر فيها الشعر ، وهي آيات لو تدبرناها لبدا لنا أن موضع العناية في القرآن الكريم هو نفي الشاعرية عن « محمد » تأصيلاً لكون رسالته سماوية ، ليست من الخيالات أو الرؤى ، أو من إلقاء شيطان شاعر ، ودفعاً لما وقع في نفوس المشركين ، من أن الرسول شاعر .

يقول تعالى :

« وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكرٌ وقرآن مبين » : يس ٦٩ .
« بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » : الأنبياء ٥ .

« أم يقولون شاعر نربص به ريب المنون • قل تربصوا فإني معكم من المتربصين • أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون • أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون • فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » : الطور ٣٠ : ٣٤ .

« ويقولون أئنا لتاركوا آلئتنا لشاعر مجنون • بل جاء بالحق وصدق المرسلين » : الصفات ٣٦ : ٣٧ .

« فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون • إنه لقول رسول كريم • وما هو بقول شاعر قليلًا ما تؤمنون • ولا بقول كاهن قليلًا ما تذكرون • تنزيل من رب العالمين » : الحاقة ٢٩ ، ٤٢ .

وهذا الإلحاح في نفي الشاعرية عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، لا يعني أن الإسلام قد عادى الشعر وأنكره ، وإنما هو بيان لرسالة المصطفى ، ودفع للوهم الذى خلطوا به بين القرآن والشعر .

ومن واديه تمامًا ، تأكيد القرآن لأمية محمد صلى الله عليه وسلم ، دفعًا للاتهام بأنه قرأ الكتب السماوية وأخذ منها :

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطئه يمينك ، إذا لارتاب المبطلون » : العنكبوت ٤٨ .

ولم تكن أمية الرسول ، وتقرير القرآن لهذه الأمية ، أن الدين الإسلامى يحض على الأمية ، ويعادى العلم ! وقد أقسم الله فى القرآن بالقلم ، وكانت آية الوحي الأولى ، آية القراءة والعلم والقلم :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق • خاق الإنسان من عاق • اقرأ وربك الأكرم • الذى علم بالقلم • علم الإنسان ما لم يعلم » .

وبلغ من حرص نبي الإسلام على نشر القراءة والكتابة ، أن جعل فداء الأسرى ممن يقرعون ويكتبون ، تعليم عدد من المسلمين الكتابة والقراءة . وكان له صلى الله عليه وسلم ، بضعة وعشرون رجلاً مختصون بكتابة الوحي . ولم يقل أحد إن فى هذا المسلك ، تناقضًا مع صريح آيات القرآن فى أمية محمد ، ونفى القراءة والكتابة عنه !

والحديث الذى رواه : « لأن يملأ فم أحدكم قبحًا خير من أن يملأ شعرًا » نقرأ رواية أخرى فيه ، عن عائشة أم المؤمنين ، تضيف إلى آخره : « هُجيتُ به » وقد عرض

شيخ الإسلام «تاج الدين السبكي» لهذه القضية في الجزء الأول من كتابه (طبقات الشافعية) وانتهى فيها إلى أن الشعر ، ككل كلام ، فيه مذموم معيب ، وفيه ممدوح مثاب . وساق مختارات من شعر الإمام الشافعي وعدد آخر من الأئمة الصالحين . ولكن النقاد الأقدمين قالوا إن الشعر امتنحن بعداء الإسلام ، وابن سلام قال إن المسلمين شغلوا عن الشعر بما هو خير منه ، بالفتوح والجهاد^(١) « والأصمعي » قال : «إن الشعر نكد بابيه الشر ، فإذا دخل في الخير ضعف ولان . هذا حسان ابن ثابت ، فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره »^(٢) قالوا هذا فما لنا في الأمر حيلة ، ولا لنا من أحكامهم مفر أو مخلص !

ولإنهم ليروون مع ذلك أن النبي كان يستحث «حسان» على الإنشاد ويقول له : « اهْجُئْهُمْ فَوَاللَّهِ لَهْجَاؤُكَ عَلَيْهِمْ أَشَدُّ مِنْ وَقْعِ السَّهَامِ فِي غُلْسِ الظَّلَامِ . اهْجُئْهُمْ وَرُوحَ الْقُدُسِ مَعَكَ »^(٣) .

* * *

ويستشهدون على عدااء الإسلام للشعر ، بما روى عن « لبيد » من أنه انصرف بعد إسلامه عن قول الشعر ، وأن « عمر » بعث إلى واليه على الكوفة ، أن يسأله عما أحدث في الإسلام من شعر . فتلا سورة البقرة وقال : « أبدلني الله هذه في الإسلام خيراً منها »^(٤) فتلقى دارسون منا هذه القولة ، وراحوا يأخذون منها ، حكماً عاماً على الشعر كله ، مع أن الخبر ، لو صح ، لما خرج عن نطاق حادثة فردية ، لا يجوز أن يعمم بها الحكم .

بل إن في الخبر نفسه ، ما يشهد بنقيض ما يدعون من كراهة الإسلام للشعر ، وإلا فقيم اهتمام خليفة المسلمين بمثل هذا السؤال عما أحدث الشعراء في الإسلام من شعر !

* * *

ثم ماذا في موقف أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » من الشعر ؟ إنهم ليروون في تاريخه أنه كان يتحدث إلى وفود القبائل عن شعرائهم ،

(١) طبقات ابن سلام : ١ ط أوروبا . (٢) الشعر والشعراء : ٣٠٥/١ معارف . (٣) ابن رثيق : العدة ١٢/١ . (٤) طبقات ابن سلام : ٣٠ .

ويروى الأبيات من شعرهم ، روايةَ حافظٍ ناقد ، وربما قضى الليل ساهراً .
يصغى إلى الشعر حتى مطلع الفجر ، فيطلب تلاوة القرآن الكريم .

وفي أخباره كذلك أنه كان يبعث إلى بعض عماله ، ليسأل الشعراء المخضرمين عما أحدثوا من الشعر في الإسلام ^(١) .

لكنهم رَوَوْا كذلك أنه زجر « حسان » وحبس « الحطيئة » وهدد « النجاشي الحارثي » بقطع لسانه ، وذلك كله أجدر بأن يشهد فينا - لو لمينا وتحرر فكرنا من سيطرة القيم التقيدية الموروثة - بسلطان الشعر في هذا المجتمع العربي ، والفتوح الإسلامية في إبانها ، والجهاد مع الروم والفرس على أشده .

نهى « عمر » حسان بن ثابت وغيره أن ينشدوا شيئاً من نقائض الأنصار ومشركي قريش في عصر المبعث ، حتى لا تهيج فتنة نامت . ثم حدث أن قدم « المدينة » في عهده ، « عبدُ الله بن الزبيرى السهمي » ، وضرار بن الخطاب « وكانا ، قبل إسلامهما ، من شعراء قريش في حربها للرسول ، فجعللا ينشدان و « حسان » ساكت على مضض ، امثالاً لأمر الخليفة ، ثم تركاه مغيطاً يفور كالمرجل ، فتوجه إلى « عمر » وحديثه عما كان ، فقال رضى الله عنه : « لا جرم والله لا يفوتانك » ثم استدعى ابن الزبيرى وضاراً ، وأجاز لحسان أن ينشدهما حتى اكتمى . وقال « عمر » يفسر موقفه :

« إني قد كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً ، دفعاً للتضاغن عنكم . فأما إذ أبوا ، فأنشدوه واحفظوه ! » ^(٢) .

أفيمكن أن يكون هذا ، والشعر قد أضاع مكانه وتعطل نفوذه وسلطانه ؟

وحبس « عمر » الحطيئة ، حين استعداه عليه « الزبرقان بن بدر » لما قال يهجو ^(٣) :

جأراً لقوم أطالوا هونَ منزله	وغادروه مقيماً بين أرماس
ملّحوا قيراه ، وهرته كلابهم	ومزّقوه بأنياب وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها	واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

(١) طبقات ابن سلام : ٣٠ ط أوربا .

(٢) الأغاني : ١٨٩/٢٠ - طبقات ابن سلام : ٦٠

(٣) طبقات الشعراء : ٢٥ - الشعر والشعراء : ٢٨٧/١ .

فما لهذا الشعر يثير « الزبرقان » وإنّ هي إلا كلمات مهددة يقولها « جرول » ابن الضراء « ذاك القمىء الوضع المغمور النسب ؟ أفكان نباح جرول ، ينال من الزبرقان فى شرف نسبه ورفعة مكانته ، لولا أنّ الشعر إذ ذاك كان ذا صولة وسلطان ؟

وقال « النجاشى الحارثى » يهجو « نعيم بن أبى بن مقبل العجلانى » (١) :

قُبَيْسَلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ وَلَا يَظْلُمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ !
وَلَا يَرُدُّونَ الْمَاءَ إِلَّا عَشِيَّةً إِذَا صَدَرَ الْوَرَادُ عَنْ كُلِّ مَنْهَلٍ
تَعَاَفَ الْكَلَابُ الضَّارِيَاتِ لِحُومِهِمْ وَتَأْكُلُ مِنَ كَعْبٍ وَعُوفٍ وَنَهْشَلٍ
وَمَا تُسَمِّي الْعَجْلَانَ إِلَى لَيْقِيهِمْ : خَذِ الْقَعْبَ وَاحْلُبْ أَيُّهَا الْعَبْدُ وَاعْمَلْ

فما لبني العجلان قد غضبوا واستعدوا الخليفة ، وإنها — فيما زعم الزاعمون — كلمات شاعر يصرخ فى واد ؟ وفيم تدخل أمير المؤمنين عمر ، وهو المشغول بأعباء الخلافة ، وشواغل الفتوح الكبرى ؟ وهل لهذا تفسير إلا أنّ الشعر كان محتفظاً بسلطانه ونفوذه على الرأى العام فى المجتمع العربى ؟

لكن نقاد العصر العباسى ، قالوا إنّ الشعر دالت دولته بظهور الإسلام وقد سلطانه على العرب الذين انصرفوا عنه بالدين الجديد والفتوح ، ولا تزال تردد اليوم ما قالوه وتنصرون أنّ قومًا آمنوا بدين كتابه معجز البيان ، قد زهلوا فى البيان وانصرفوا عنه فلم يعد للأدب فى دنياهم الجادة المناضلة مكان !

كأنما كانت دنياهم فى الجاهلية هوًا ولعبًا ، وفراغًا وتعطلا !

ولولا سيطرة أقوال النقاد الأقدمين علينا لما هان على عقولنا أن نسلم بهذا ، ولما غاب عن أستاذ جامعى محقق ، مثل الزميل « الدكتور شكرى فيصل » ما فى كلامه من تدافع إذ يقول معللاً دعوى ضمور الشعر بعد المبعث : « لسنا نحتاج أن نصف المقاومة التى لقيتها الحركة الإسلامية ، والخصومات التى جبهتها فى مبدأ الدعوة أو فيما بعد ذلك فى المدينة ، وكان الشعراء الذين أصلوا للنبي صلى الله عليه

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١ / ٢٨٧ .

ابن رشيقي : المدة ١ / ٤٥ .

وسلم ودعوته ناراً حامية من هجائهم ومقاومتهم ، لسان هذه المقاومة وهم كذلك قد أحسوا أن المجتمع الجديد لن يرحب بهم إذا هم ظلوا يحتفظون بالقيم التي تملأ أذهانهم وقلوبهم ، ولن يجدوا في رحابه هذا الانطلاق الذي كانوا يجدونه في المجتمع الجاهلي . وإذا ذكرنا هنا ما نعرف من قيمة الشاعر ، أدركنا أى أذى كان يلحق بالدعوة الإسلامية من جراء هذه الأهاجي التي كان يتسلط بها الشعراء المشركون ، وإذا ذكرنا كذلك أثر الشعر في نفوس العرب ، وقدرته على استثارها وعيثة بعواطف الجماعة ، واستجابة العربي لهذه الإثارات العاطفية ، أدركنا ما كان من تعويق هؤلاء الشعراء للدعوة الإسلامية وعراقيلهم في طريقها ولذلك لن نعجب إذا وجدنا الرسول يلجأ إلى هذه الأداة نفسها ، وإذا وجدنا القرآن يخص هؤلاء الشعراء بقائه فيهم ، هذه القالة التي نظرت إليهم على أنهم فاس لا مكان لهم في مجتمع يقوم على الموافقة بين الظاهر والباطن ، والمطابقة بين القول والعمل^(١) .

« ثم إن حركة الفتح وما رافقها من جو معنوي أو مادي ، لم تكن لتتيح للعرب آنذاك أن ينصرفوا عنها إلى أنفسهم . .

» وسبب في آخر هو أن الشعر الجاهلي تمثيل للتقاليد الجاهلية ، وهم قد آثروا مغادرة هذا الماضي ، والانصراف عن أشباحه وخيالاته ، فانصرفوا لذلك عن الشعر الذي يمثلها . . وجاء القرآن فكان تعويضاً عن الشعر^(٢) .

ويبدو لي أن ضمور الشعر دعوى غير مفهومة مع هذا الحديث الدقيق الواعي لخطر الشعر على الدعوة الجديدة ، والتجاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى السلاح نفسه ، وما كان للشعر إذ ذاك من أثر في نفوس العرب وقدرته على استثارها ، وعيثة بعواطف الجماعة واستجابة العربي لهذه الإثارات العاطفية كتعبير « الذكور فيصل » نفسه ! وهذا الكلام أول ، في تقديري ، أن يساق شاهدأ على سلطان الشعر ونفوذه وسطوته ، لا على ضموره وهوانه ، لولا أن الأستاذ الزميل ، متأثر بقالة قديمة عن انصراف العرب عن الشعر بالدعوة الجديدة

(١ ، ٢) الدكتور شكرى فيصل : (تطور الفزل) ص ١٨٥ : ١٨٧ ط جامعة دمشق ١٩٥٩

وانظر معه الدكتور طه الحاجري (في تاريخ النقد) ص ٤٧ ط الإسكندرية .

وقد وحاتها ! جاء بها « ابن سلام » في طبقات الشعراء ، منذ اثني عشر قرناً .
وما فينا من يجهل أن عصر المبعث كان حافلاً بالشعر فياضاً به .. وأن
الخصومة بين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من ناحية ، والمشركين من ناحية
أخرى ، كانت عنيفة حادة ، لم تقتصر على السيف والسنان بل امتدت إلى الشعر
والبيان ، وإلى المناقضات بين شعراء المعسكرين ^(١) .

ولا فينا من لم يقرأ الأخبار المروية عن الرسول الكريم ، شاهدة بمباغ اهتمامه
بالشعر ، وحرصه على أن يعي المسلمون من الشعراء لصالح الأمة وخير الجماعة ،
مؤكد أن الحياة الجادة المجاهدة لا تستغنى أبداً عن الأدب ولا تستهين بسلطانه
على الرأي العام .

* * *

ولقد عاش العرب طويلاً والأدب فنهم الأوحده وسيلتهم التي لا نعرف
أنهم كانوا يملكون سواها للتعبير عن وجدانهم . وجاء الإسلام بمعجزة بيانية ،
فكانت هذه المعجزة آية تقدير لمكان البيان فيهم ومنزلته عندهم ، بقدر ما كانت
شاهداً على أن الإسلام لم يجئ ليعطل البيان ، بل أقر وظيفته في المجتمع وأبقى
لذويه ما كان لهم من قديم ، من شرف القيادة الوجدانية والتكلم بلسان الجماعة .
وكان التطور الهام الذي حدث ، هو أن الإسلام أراد لشاعر القبيلة أن يصير
شاعر الأمة ، فلم يهدر بهذا ذاتية الشاعر ، بل أراد لها أن ترحب فلا تعود محدودة
بنطاق الأسرة ، والقبيلة . .

ولم يصير الشاعر في الوضع الجديد داعية مأجوراً ، فإما كان الرسول صلى الله
عليه وسلم ولا أحد من خلفائه رضوان الله عليهم ، يستبجح أن يفتح بيت مال المسلمين
للشعراء ثمناً لتأييدهم ، بل ما كان الرسول ولا أحد من خلفائه يعد هذا المال ملكاً
له يتصرف فيه كيفما شاء ، وإنما هو مال المسلمين أمانة بين أيدي النبي والخلفاء
الراشدين ، ينفقون منه على خير الرعية ومصلحة الجماعة طبقاً لحدود الله . . .

(١) الأستاذ طه إبراهيم : النقد الأدبي عند العرب : ٢٧ .

وانظر معه : الدكتور بدوي طيانه (دراسات في النقد) ، ص ٥٨ .

كان الشاعر إذن ، يصدر عن عقيدة وإيمان ، ويهون عليه في سبيلهما أن
يُغضب عشيرته عند اختلاف الدين . لا التماساً لأجر مآدى كما كان يفعل
المرتزقة من تجار الشعر . بل ابتغاء مرضاة الله ورسوله . وربما أرقت الشاعر
ذكريات مسابرة قومته على الكفر ، قبل أن يشرح الله قلبه للإسلام . فيقول
عبد الله بن الزبيرى السهمي : لى

منع الرقادَ بلابلٌ وهمومٌ	والليل معتلج الرواق بهم
مما أتانى أن «أحمد» لامننى	فيه . فبت كأنى محموم
إنى لمعتذر إليك من الذى	أسديت إذ أنا فى الضلال بهم
أيامَ تأمرنى بأغوى خطه	سهمٌ . وتأمرنى بها مخزوم
فاغفر فدنى لك والدى كلاهما	ذنبى . فإنك راحم مرحوم
وعليك من أثر المليكِ علامةٌ	نورُ أضاء . وخاتم مخنوم !

وما أبعد الفرق بين اعتذار النابغة يبغي به رضى « النعمان » وعطاءه ، وبين
اعتذار « عبد الله بن الزبيرى » وأمثاله ممن أسلموا بعد كفر ، فلو سئلوا أن يبذلوا
أموالهم وأنفسهم فى سبيل عقيدتهم ، لما ترددوا فى بذلها طائعين راضين !

• • •

وحين أسأل هنا : ماذا أردت بكل هذا الكلام المسهب عن الشعر في الإسلام ؟
وأى شئ ، يجدى علينا في حاضرتنا ؟

أجيب :

اليوم تذيع فينا دعوة تنكر أن يكون للأدب مكان في حياتنا الجادة الطامحة ،
وتطالب بأن يتخلى الأدب عن موضعه كى يفسحه للعلم ، وهذه الدعوة بلاشك ،
صدى الفهم الخاطئ لوظيفة الأدب . والزعم الباطل بأنه لون من الترف لا يلائم
عهد الجدد والكفاح . فلو لم يكن من وراء ذلك الكلام عن الشعر والإسلام ،
إلا أن يصح فهمنا لثرائنا ، وتقديرنا لخطر الشعر في أحفل مراحل تاريخنا بالجد
والجهاد ، لأدركنا مدى حاجتنا اليوم إلى قيادة وجدانية يتولى بها الأدب حراسة
معنويتنا ، ويحمى إنسانيتنا من طغيان المادية وجفاف الآلية وضراوة النفعية ، ويخلو
نضالنا في عالم اليوم !

ونسلم اليوم كلاماً كثيراً عن حرية الأديب : فناس يطالبونه بأن يلتزم
بقيود المجتمع وتقاليده ونظمه . ويزعم آخرون أن في هذا الإلزام مصادرة لحرية
الشخصية . وهذه الخصومة أيضاً ، ليست إلا صدى للفهم الخاطئ الذى سلب
الأديب صفته الاجتماعية ، فساغ لنا أن نتصور إمكان وجود حرية مطلقة يستبج
الفرد بها أن يقول ما شاء ويفعل ما شاء باسم الحرية . . ولو صح فهمنا لاجتماعية
الأديب ، بما هو إنسان ، لتبين لنا أن حرية هي حرية فرد في مجتمع ، من
حقه أن يمارسها كيفما شاء ، لكن ليس على حساب الآخرين . ومن هنا جاز
أن تصادر حرية الأديب إذا انحرف أو ضل ، أو إذا جاوز بها النطاق الذى
يلزمه به كونه إنساناً يعيش في مجتمع ، وهذه المصادرة – التى رأينا مثلاً منها
في : زجر عمر لحسان ، وجبهه الخطيئة ، وإنذاره النجاشى الحارثى بقطع لسانه –
لا تعنى بحال من الأحوال إهدار الحرية الفردية ، وإنما تعنى احترام مدنية الإنسان
التي لا تظهر إلا في نطاق حياته مع الجماعة ، والتي تفرض علينا روابط وقيوداً
لا بد من التزامها ما دمنا نعيش في مجتمع

الخصومة إرهاص وانتقال

طبقات الشعراء عند « ابن سلام » : عشر
للجاهليين وعشر للإسلاميين .

ويقول تراثنا : إن الشعر عبر مرحلة انتقال
في فترة الخصومة التي بدأت من أخريات
الجاهلية مرهضة بالتحول الخطير ، واستغرقت
زمن الجليل الإسلامي الأول ، بما حمل من
راسب القديم .

ولقد جاء الإسلام بمثلثه العليا ، حيث لا مكان فيها للخمریات ، والغزل
اللاهى ، والتعصب للقبيلة . وإنما يكون المدح والمجاء ، والفخر والرثاء ، فى نطاق
الفضائل الإسلامية التى أخذ الدين الجديد بها أتباعه : من صحة الإيمان وخشية
الله ، والبذل فى سبيل العقيدة ، وصدق القول ، ونقاء الضمير .

وتلاقت هذه المثل مع القيم الجاهلية العتيقة الموروثة ، وكان الرسول صلى الله
عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون ، ساهرين على التمكن للقيم الإسلامية من المجتمع
العربى الذى شهد المبعث .

وهنا تلقانا قضية من أخطر القضايا فى تاريخ الأدب العربى لتلك الفترة :
فقد جعل « ابن سلام » الشعراء ، إما جاهليين وإما إسلاميين^(١) ، والدارسون
فى حيرة من أمر شعراء الجيل الإسلامى الأول : فمنهم من عدّهم إسلاميين ،
خُلصًا لا أثر فيهم لجاهلية ، ومنهم من حسبهم جاهليين لم يؤثر الإسلام فى
شعرهم .

والوضعان ، كلاهما ، يعزلان الأدب عن الحياة . . .

فظهر الإسلام كان بلا أدنى ريب ، حادثًا جليلاً حاسمًا فى تاريخ الإنسانية
جميعًا ، لا فى تاريخ العرب فحسب . فلو صح « أن الأدب لم يتأثر بالإسلام
إلا قليلاً » . وقبلما نسمع فى صدر الإسلام شعراً فيه خشوع وتبتل لله ، أو فيه
مثالية الإسلام . ومن جهة التعبير الفنى الخالص ، لا نجد أى فرق بين شعر
هذا الجيل وشعر الجاهليين^(٢) . لو صح هذا ، لكان معناه أن الأدب وقف
بمعزل على ذلك الحادث الأكبر الذى هز أرجاء الجزيرة العربية وما حولها ، ولشقى^٣
علينا أن نجعل للأدب مكاناً فى الحياة ، وقد شهد أعظم ثورة فى تاريخنا ،
وتاريخ البشرية ، فوقف فى وادٍ والدنيا كلها فى وادٍ . . .

وكذلك الأمر بالنسبة إلى من جعلوا شعر هذه الفترة — صدر الإسلام —

(١) وكذلك المرزبانى فى (المشع) .

(٢) الدكتور شوق ضيف : (النقد) ٢٣ — ط المعارف .

إسلامياً خالصاً لا تشوبه شائبة من الجاهلية التي نبتت فيها للشعر جذوره العسيفة الراسخة ، واحتكمت تقاليدها الفنية في أمزجة الشعراء وأسننهم . فالقول بأن العرب تخلوا فجأة عما ألفوه واعتادوه في فنهم القول الذي يمثل التقاليد العريقة لماضي طويل « لأنهم قد آثروا مغادرة هذا الماضي والانصراف عن أشباحه وخيالاته ، فانصرفوا لذلك عن الشعر العربي الذي يمثل »^(١) معناه أن الأدب تغير تغيراً حاسماً بين يوم وليلة ، فانبثت من جذوره ، وقطع كل صلة بينه وبين ماضي طويل ، عاش فيه إلى أمس جد قريب !

ومن الأقدمين أنفسهم من لاحظوا أن بين شعراء الجاهلية وشعراء الإسلام فريقاً أطلقوا عليهم شعراء الخضرة^(٢) . وهي تعني ، في الأصل اللغوي ، الاختلاط الملحوظ فيه الاشتباه : فالخضرم الماء بين الحلو والمر ، أو هو بين الثقل والخفيف ؛ واللحم لا يدرك أمن ذكر أم من أنثى ، والرجل لا يعرف أبوه ، أو الأسود من أب أبيض ، والأذن مقطوعة دون أن تنفصل . . .

لكن من الأقدمين من لم يلتفتوا في الخضرة إلى هذا المعنى ، بل ردها إلى قول لأبي الحسن الأخفش : « يقال ماء خضرم إذا تناهى في الكثرة والسعة ، فنه سمي الرجل الذي شهد الجاهلية والإسلام مخضرمًا كأنه استوفى الأمرين ، ويقال أذن مخضرم إذا كانت مقطوعة ، فكأنه انقطع عن الجاهلية إلى الإسلام »^(٣) . والأذن المخضرم ، في تعريف اللغويين ، لا هي مفصولة ولا موصولة .

وتفسير الخضرم بالسعة أو بالانقطاع ، يعطل الملحظ الفني الذي تقضى به طبيعة عصور الانتقال ، وهو ملحظ لعله لم يفت صاحب (القاموس) حين أورد في المخضرم معاني الاشتباه والاختلاط ، ثم أتبعها بالشاعر الماضي نصف عمره في الجاهلية ونصفه في الإسلام أو من أدركهما . والسياق قد يلفت إلى أن دلالة التوزع في الشاعر بين الجاهلية والإسلام ، ملحوظة في الخضرم .

على أن مؤرخي الأدب ممن لم يفهموا هذا الاعتبار ، اكتفوا بأن يخصصوا به

(١) الدكتور شكري فيصل : تطور الغزل : ١٨٧ ط دمشق .

(٢) ابن رشيق : العدة ١ - ٧٣ .

(٣) المصدر نفسه : ١ - ٧٣ .

الجيل الذى تأثر بالإسلام مع روااسب جاهلية فى شعره . على حين نرى من المهم أيضاً ، أن نجعل من المخضرمين ، أولئك الذين عاشوا فى أنحريات الجاهلية ، وإن لم يدركوا الإسلام .

وإذا كان تاريخ الأديان يعترف بأن الإسلام لم يأت فجأة ، دون أن تكون الحياة إذ ذاك قد تهيأت له وظهرت حاجتها إليه ، فالأمر فى الفن شبيه بهذا ، ولا بد أن يكون فى شعر الفترة الأخيرة من الجاهلية ، ما يسجل التهيؤ لهذا الحادث الجليل والتطلع إليه .

وقد أفاضت كتب السيرة والتاريخ الإسلامى ، فى ذكر الإرهاصات التى كانت تملأ الجزيرة العربية قبيل المبعث^(١) . وبقي أن تعنى الدراسة الأدبية بجمع ما تطلع إليه شعراء الجاهلية من قيم غير التى كانت تسود وتحتكم ، وما أعطى تراثهم قبيل الإسلام ، من شعر التحنف والحكمة ، الذى يمثل فى تلك الفترة الإرهاص الفنى بالتطور المرتقب .

وفى الخبر أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان يلتمس من يحفظ كلام « قس بن ساعدة » فى سوق عكاظ ، وقد سمعه الرسول قبل أن يبعث .

وفيه كذلك أنه كان يعجب بقول طرفة :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويقول فيه : هذا من كلام النبوة .

وطرفة هو القائل :

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينقص
لعمرى إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطَّوَلِ المرخى وثنيه باليد
منى ما يشأ يوماً ينقصه لحنفه ومن يك فى جبل المنية ينقص
أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غداً ، ما أقرب اليوم من غد

كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر شعر « أمية بن أبى الصلت » فى الجاهلية قال : هذا رجل آمن لسانه وكفر قلبه .

(١) اقرأ فى هذا الجزء الأول من السيرة النبوية لابن هشام ، وتاريخ الطبرى ، والجزء السادس عشر من نهاية الأرب للنجاشى ، ط دار الكتب .

وليس يبعد من الإرهاص الفني مثل قول « زهير بن أبي سلمى » :
 فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
 يؤخر فيوضع في كتاب فيلخر ليوم الحساب أو يعجل فيقيم

وأعلم علم اليوم والأمر قبله ولكنني عن علم ما في غد عم
 ومن هاب أسباب المنايا ينلني ولو رام أسباب السماء بسلم
 ومن يوف لا يذمم ومن يقض قلبه إلى مطمئن السر لا يتجمجم
 ومهما تكن عند امرئ من خليقة ولو خالها تخفى عن الناس تعلم
 أو قوله :

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى من الأمر أو يبدو لهم ما بدا لي
 بدا لي أن الله حق فزادني إلى الحق تقوى الله ما كان باديا
 وأنى متى أهبط من الأرض تلع أجد أثراً قبلي ، جديداً وباليا
 أراني إذا ما بت بيت على هوى وأنى إذا أصبحت أصبحت غاديا
 إلى حفرة أهدى إليها مقيمة بحث إليها سائق من وراثيا
 كأتى وقد خلفت تسعين حجة خلعت بها عن منكبي ردائيا
 بدا لي أنى لست مدرك ما مضى ولا سابق شيء إذا كان جاثيا
 أراني إذا ما شئت لاقيت آية تذكرني بعد الذي كنت ناسيا

ألم تر أن الله أهلك تبعا وأهلك لقمان بن عاد وعاديا
 وأهلك ذا القرنين من قبل ما ترى وفرعون جباراً طغى والنجاشيا
 ألا لا أرى ذا إمة أصبحت به فتركه الأيام وهي كما هيا
 ألم تر للنعمان كان بنجوة من الشر لو أن امرأ كان ناجيا
 فغير منه ملك عشرين حجة من الدهر يوم واحد كان غاويا
 فلم أر مسلوباً له مثل ملكه أقل صديقاً باذلاً أو مؤاميا
 فأين الذين كان يعطى جياده بأرسانهن والحسان الغواليا
 وأين الذين يحضرون جفاته إذا قدمت ألقوا عليها المراسيا
 رأيتهم لم يشركوا بنفوسهم منيته ، لما رأوا أنها هيا !

وقول « لبيد بن ربيعة » في الجاهلية ^(١) :

حمدت الله والله الحميد والله المؤثِّلُ والعديدُ
فإن الله نافِلَةٌ تُقاه ولا يقتالها إلا سعيد

• • •

قُضِيَ الأمور وأنجز الموعود والله ربي ماجد محمودُ
ولقد بليت إرمٌ وعادٌ كيدَه ولقد بليتَه بعد ذاك ثمود
خلّوا ثيابهم على عوراتهم فهم بأفنية البيوت هُمود
ولقد ستمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس : كيف لبيد

• • •

بلىنا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الديار بعدنا والمصانع
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع
وما المسال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن تُردَّ الودائع

• • •

لأنما يحفظ التقي الأبرارُ وإلى الله يستقر القرار
وإلى الله ترجعون وعند الله وردُ الأمور والإصدار
كلُّ شيء أحصى كتاباً وعلماً ولديه تجلّت الأسرار

« وزهير ، وطرفة ، وقس بن ساعدة » لم يدركوا الإسلام . « أمية وليبد » قالوا هذا الشعر في الجاهلية ، وقد جئنا من شعرهم هنا بما يكفي لأن يشهد بما نريد أن نلفت إليه من تمثيل الشعر في أخريات الجاهلية لفترة التطلع والرقب والانتظار ، وأن نصحح به ما شاع فينا من قيم وآراء تعزل الفن عن الحياة ، وتفصل في هذا التناقض العجيب الذي تواجهنا به الدراسة الأدبية في القديم والحديث . فترى « ابن سلام » مثلاً يهمل فترة الحضرة ، ويوزع طبقاته على جاهليين وإسلاميين ،

(١) المشهور عن « لبيد » أنه لما أسلم ترك الشعر فلم يقل إلا بيتاً أو ثلاثة أبيات . انظر الشعر والشعراء ٢٣٢/١ ط الحلي .

وراجع قصائد لبيد ، في صفحات ٣٤ ، ٣٨ ، ١٦٨ من « شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري » ط الكويت ١٩٦٢ .

ونقرأ للدكتور شكرى فيصل « أن العرب وقد آثروا مغادرة ماضيهم في الجاهلية والانصراف عن أشباحه وخيالاته فانصرفوا لذلك عن الشعر العربي الذى يمثله ، على حين يقول الدكتور شوقي ضيف : « إن الأدب لم يتأثر بالإسلام إلا قليلا » . وما ذاك إلا لأنهم أهدروا فترة الحضرة ، إهداراً يأباه تراثنا الفنى وتنكره طبيعة الفن وناموس الحياة .

وهذا شعرهم في أخريات الجاهلية ، يؤيد وجهة نظرنا في الرجوع بفترة الحضرة إلى ما قبل الإسلام ، مسجلة للإرهاص الفنى بالحادث الجليل ، ومعبرة عن التهيو العام الذى عرفناه سياسياً واجتماعياً ، فى تناسى العرب لعصبيتهم للقبيلة أمام الخطر الأجنبى ، وقتالهم مجتمعين فى « يوم دى قار » . وعرفناه دينياً وخلقياً فى مثل « حلف الفضول » الذى تداعت إليه قبائل من قريش ، « وتعاهدوا على ألا يجذبوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا أقاموا معه ، وكانوا على من ظلمه ، حتى ترد عليه مظلمته » وقد شهد المصطفى هذا الحلف قبل أن يسبعث ، ثم قال فيه بعد المبعث : « لقد شهدت فى دار عبد الله ابن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حُمَمرَ النعم ، ولو إدعى به فى الإسلام لأجبت » (١) .

وكما كان التهيو الاجتماعى عاماً فى الجزيرة كلها ، وكان التهيو الدينى مركزاً فى مناطق بعينها ، كذلك رأينا صدى ذلك فى الشعر ، حيث بدأ الإرهاص الفنى للتحول الدينى عند الشعراء المتحنفين فى مكة : مثابة حج العرب ومركز تدينهم ، وعند المتطلعين من الحكماء ذوى الاتصال بالبيئات الدينية .

* * *

وإذا تركنا من المخضرمين ، شعراء الجاهلية الذين لم يشهدوا الإسلام مثل « زهير والنابغة وطرفة » وجدنا من أدركوا الإسلام لم يتأثروا به على حد سواء . بل تفاوت تأثيرهم بنسبة قدمهم فى الجاهلية ، أو مدى تماثلهم للقيم الإسلامية الجديدة وانفعالهم بها ، وحظهم من صحبة الرسول ، عايه الصلاة والسلام ومكانهم فى المجتمع الدينى الجديد .

(١) ابن هشام : السيرة ١٤٠/١ ط الحلى .

وكنيت فيما مضى ، أحسب أن في الإمكان تمييز ثلاث فئات في شعراء الجليل الإسلامي الأول :

الأولى ، لمن أدركوا الإسلام بعد أن نضجت موهبتهم واكتمل فنههم وفات أوان تأثيرهم ، وهؤلاء عددتهم : مخضرمين زمنًا جاهليين فنًا ، مثل : لبيد ، وأمية ابن أبي الصلت ، والخنساء .

الثانية : لمن أدركوا الإسلام صغاراً لم تكتمل موهبتهم ، وهم المخضرمون زمنًا ، الإسلاميون فنًا .

والثالثة : لمن أدركوا الجاهلية والإسلام ، عاشوا فيهما على السواء ، وقالوا الشعر في كل منهما ، وهم المخضرمون زمنًا وفنًا ، كحسان بن ثابت وكعب بن زهير ، والحطيئة .

لكني أوتر اليوم أن أضيف إلى هذا التقسيم الذى يميز كل صنف من المخضرمين على حدة ، ملحظًا جديدًا هو أن الذين شأخوا في الجاهلية ، قد عاشوا في فترة الترقب والقلق والإرهاص ، فبانت في شعرهم ملامح من الحياة الجديدة قبل أن يدركوها ، على ما رأينا في شعر لبيد وأمية .

كذلك الأمر بالنسبة إلى الآخرين ممن أدركوا الإسلام وتأثروا به وقالوا الشعر بعد المبعث ، فإنهم لم ينجوا تمامًا من تأثير بالجاهلية التى غبرت .

والنظرة الناقدة ، لا يخطئها أن تلمح أثرًا إسلاميًا في شعر الذين لم يسلموا منهم ، كما لا يخطئها أن تلمح نزعة جاهلية في شعر الذين أسلموا وخاضوا المعركة بلسانهم ، إلى جانب الرسول صلى الله عليه وسلم .

فعبد الله بن الزبعرى ، قال في « أحد » قبل أن يسلم :

يا غراب البينِ أسمعتَ فقل	إنما تنطق شيئًا قد فعل
إن للخير وللشر مدى	وكلا ذلك وجهٌ وقيل
والعطياتُ خِساسٌ بينهم	وسواءٌ قبرٌ مُثَرٍّ ومُثِيل
كل عيش ونعيم زائل	وبنات الدهر يلعبن بكل
أبلغنا حانَ غنى آية	فقريض الشعر يشى ذا الفلّ

كم قتلنا من كريم سيد
صادق النجدة ، قرم ، بارع
ليت أشياخي بيدٍ شهدوا
حين حكّت بقباء بركها
ثم خفوا عند ذاكم رُقَصًا
فقتلنا الضّعْف من أشرافهم
لا أَلوم النفس إلا أننا
بسيوف الهند تعلو هامهم
ماجد الجديين مقدم بطل
غير مُلثاثٍ لدى وقع الأسل
جزع الخزرج من وقع الأسل
واستحرّ القتلُ في عبد الأشل
رقص الحفّان يعلو في الجبل
وعَدَلنا مَيْلَ « بدرٍ » فاعتدل
لو كررنا لفعلنا المقتعل
علّلا تعلوهم بعد نهّل

ثم لما فتح الله صدره للإسلام ، أقبل على الرسول ينشد في انفعال صادق
مخلص للدين الجديد^(١) :

يا رسول المليك إن لسانى
إذ أجارى الشيطان فى سنن الـ
آمن اللحم والعظام بما قلـ
راتق ما فتقت إذ أنا بور
فى ، ومن مال ميله مثير
ت ، فتفسى القدى وأنت النذير

كذلك لم يحل حسن إسلام « حسان » ، ومكانه من النبي الكريم ، دون
نزعة جاهلية فى شعره ، فلقد جاء فى مدحته الحمزية للرسول ، بأبيات فى الغزل
والخمریات على مألوف الجاهلية ، رغم كراهة الإسلام لهذا الصنف من الشعر ،
وهو ملحظ لم يفت « أبا العلاء المعرى » حين جاء بحسان بين شعراء جنة النفران ،
ليسأله على لسان « ابن القارح » عن أبياته :

كان سبيشة من بيت راس
على أنيابها ، أو طعم غص
على فيها ، إذا ما الليل قلت
إذا ما الأثربات ذُكرن يوما
يكون مزاجها عسل وماء
من التفاح هصره اجتناء
كواكبه ، ومال بها الغطاء
فهن لطيب الراح القداء
ثم يقول له منكراً :

« ويحك ! ما استحييت أن تذكر مثل هذا فى مدحك رسول الله ؟ »^(٢)

(١) طيقات ابن سلام : ٥٩ .

(٢) رسالة النفران : تحقيق الدارسة : ٢٣٥ ط رابعة - ذخائر العرب .

و « كعب بن زهير » استهل (بردته) بالتقليد الجاهلي العريق :
 بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متَّيِّمٌ إثرَها لم يُفدَ مكبولُ
 وما سعاد غداةَ الين إذ رحلت إلا أغنَّ غُضيفُ الطرفِ مكحولُ
 ولم يمنعه تأثره بالقيم الإسلامية في مثل قوله :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من ميوف الله مسلول
 نبث أن رسول الله أوعى والعفو عند رسول الله مأمول

من نزعة جاهلية يأبأها الإسلام ، في تعريضه بالانتصار^(١) ، وهم من هم في
 المجتمع الإسلامي ، فيقول مباحيا بقريش :

في فتية من قریش قال قاتلهم بيطن مكة لما أسلموا : زولوا
 زالوا ، فما زال أنكاس ولا كُشْفُ يوم اللقاء ولا سودٌ معازيل
 لا يقع الطعن إلا في نحورهم وما بهم عن حياض الموت تهليل
 يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عودَ السودُ التنايل

والإسلام لا يقر الهجاء باللون ، ولا يرى تفاضل الناس بالألوان ، وإنما يتفاضلون
 بالتقوى والعمل الصالح .

• • •

وكذلك كان النقد الأدبي في تلك الفترة مخضرمًا ، موزعًا بينَ بين : منه
 ما يحتكم إلى مقاييس إسلامية خالصة ، كتقد عمر لبيت سحيم حين قدَّم الشيب
 على الإسلام ، في قوله :

عميرة ودَّعْ إن تجهزتَ غادياً كفى الشيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهياً
 وإعجابه بزهير لأنه كان « لا يتبع حوشى الكلام ، ولا يعاقل في المنطق ،
 ولا يقول إلا ما يعرف ، ولا يملح الرجل إلا بما يكون فيه »^(٢) .

وكقوله لبني العجلان ، حين شكوا إليه النجاشي الحارثي لقوله فيهم :
 قُبِيْلَةٌ لا يغفلون بئمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء - ٢٠ . والشعر والشعراء لابن قتيبة : ١٥٥/١ معارف

(٢) المرزباني : الموضح ٣٥٤ ط السلفية ١٣٤٣ . والشعر والشعراء لابن قتيبة : ١٣٨/١ معارف .

« ليت آل الخطاب هكذا »

ثم لما وصلوا إلى بيت الحارثي :

وما سُمي العَجَلانَ إلا لقليلهم : خذ القعبَ واحلبْ أيها العبدُ واعجلِ

قال عمر : كلنا عبيد الله ، وسيد القوم خادهمهم ^(١) .

ومنه ما يحتكم إلى موازين وقيم جاهلية : هذا « لبيد » — الذي اشتهر بصحة إسلامه ، وبلغ من تأثيره بالدين الجديد أن امتنع عن قول الشعر اكتفاء بالقرآن فيما قالوا — سئل بعد إسلامه عن أشعر الشعراء ، فأجاب : الملك الضليل . يعنى امرأ القيس ، وهو من أنكرته القيم الإسلامية حتى ليُروى أن رسول الله قال فيه : « إنه يأتي يوم القيامة حاملاً لواء الشعراء إلى النار » ^(٢) !

• • •

وأمام ما يشهد به تراثنا من أن الأدب كان في تلك الفترة مثلاً للخضمة بما يحمل من ملامح الجاهلية والإسلام ، وما يبدو فيه من تأثير بالحياة الجديدة مع رواسب من الماضي ، نأبى أن نقول مع عدد من مؤرخي الأدب ونقاده بالانقطاع البات ما بين الشعر العربي وقديمه الجاهلي « فإن انصراف المسلمين إلى الفتح والجهاد ، فإذا خلوا فإلى العبادة والنسك ، هو الذي صرفهم عن إنعام النظر في الأدب ونقده ، اللهم إلا تطبيق تلك الروح الدينية والخلقية التي جاء بها الإسلام » ^(٣) .

ونأبى كذلك التسليم بالقول :

« إننا إذا تجاوزنا عن مثل عمر — ممن يمثل القوامه على القيم الإسلامية — لم نجد كبير فرق بين النقد الأدبي لهذا العصر ، وبينه في العصر الجاهلي » ^(٤) . ذلك لأن إهدار ملامح الخضمة في ذلك الجيل ، وضم شعرائها ونقادها

(١) الشعر والشعراء : ١ / ٣٣٠ معارف .

(٢) الصدة : ١ / ٥٩ .

والشعر والشعراء : ١ / ٧٤ .

(٣) الدكتور بدوي طبانة : دراسات في نقد الأدب ٧٣ .

(٤) الدكتور طه الحاجري : في تاريخ : النقد ٦٩ .

إما إلى الجاهلية وإما إلى الإسلام ، لا يقره تراثنا الأدبي الذي ساير الحياة وعبر عنها في مرحلة واجهت أجل وأخطر حادث في تاريخ العرب .

ولا تبدأ الحضرة عندنا بظهور الإسلام ، بل تخفى بها من أخريات الجاهلية إلى قبيل النصف الثاني من القرن الأول للهجرة : ملتصين فيها ما يؤكد أن الشعر العربي كان مع الحياة ، ومستخلصين له قيمة جديدة تنفى أنه كان بمعزل عن الأحداث الكبار ، أو أنه انبت فجأة من ماضيه الطويل . . .

• • •

وماذا وراء هذا الفهم المحرر لأدب الحضرة ؟

وراءه أن نستريح من هذا التناقض الحاد ، بين رأى من ذهبوا إلى أن الإسلام بثر الشعراء من ماضيهم ، ورأى من قالوا إن الأدب العربي ظل جاهلياً في صدر الإسلام . ومن ثم ندرك أن الأدب لم يكن قط ، ولن يكون أبداً ، بمعزل عن الحياة . .

ووراءه ألا نصدم أبناءنا الطلاب بأقوال مضطربة متناقضة ، يدفع بعضها بعضاً ويرد بعضها على بعض ، ففي الكتاب الرسمي الذي كان مقرراً على طلاب الصف الأول من مدارسنا الثانوية ، يقرأ أبنائنا في الفصل الأول الخاص بالعصر الجاهلي ، حديثاً حماسياً عن فضائل للعرب في قديمهم سجلها الشعر الجاهلي ، الذي عكس صورة من حياتهم في الصحراء « التي تصقل النفوس وتصهر الطباع وتربي في القلوب حب الاستقلال وتغرس في النفس خللاً أظهرها : الشجاعة ، والكرم ، وإيواء الضيف ، والوفاء بالعهد ، والدود عن الحمى ، وإغاثة الملهوف ، وحماية الجار ، والعربي كذلك مرهف الحس لا يقيم على الضيم ولا يرضى بالذل ويعتز بشخصيته » (١) .

ونحتم الكلام عن الجاهلية بنصوص تسجل « تقاليد العرب واعتزازهم بما لهم من شجاعة وكرم وإباء وشم » (٢) .

(٢٠١) انظر كتاب الأدب والنصوص ، للسنة الأولى الثانوية ؛ ص ٣ : ٢ ط وزارة التربية والتعليم

بمصر - ١٩٥٨ . وقد عدل بعد ذلك .

فلما جاء السادة مؤلفو الكتاب — وهم من خاصة المشتغلين بالدراسة الأدبية — إلى العصر الإسلامي ، بَروا العرب بَراً من ماضيهم ، ونسوا كل ما ذكره عن فضائلهم ، وركزوا الجهد في ذم « عنجهية الجاهلية وغلطستها وتفرق قبائلها ! » كأنما لم يعتز نبي الإسلام بأمهاته في الجاهلية قائلاً : « أنا ابن العاتك من سليم . » وكأنه صلى الله عليه وسلم لم يذكر « حلف الفضول » ويقول : « لودعيت إليه في الإسلام لأجبت » . وكأنه صلى الله عليه وسلم لم يقل لسفانة بنت حاتم طي : « حين ذكرت أباها وهي في السبايا من طي » : « لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه » . ثم قال لمن حوله : « خلوا عنها فقد كان أبوها يحب مكارم الأخلاق ! »

نسى السادة المؤلفون كل هذا ، ليؤكدوا أن عرب الجاهلية لا مكارم لهم ، وأنهم لم يعرفوا الفضائل قبل الإسلام ، ثم راحوا — عفا الله عنهم — يتعقبون الشعر الجاهلي المسجل لمكارم الأخلاق ، ليوجهوه توجيهاً يمسح كل فضيلة للعرب . فقول الشاعر الجاهلي لزوجته :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له أكبلا فإنني لست آكله وحدي

أخا طارقاً ، أو جارَ بيتٍ فإنني أخاف ملامات الأحاديث من بعدى

شاهد على كرم أفسده الخوف من سوء الذكرى !

وقول حاتم :

أماوى إن المال غادر ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر

شاهد على جود مذموم ، يطلب له الثمن من حسن الذكر ! فالعبرة كانت

عندهم بحب المدح وخوف الذم !

وزهير بن أبي سلمى ، الذي كان في الفصل الأول من الكتاب داعية

سلام ، صار في الفصل الثاني من الكتاب نفسه ، داعية حرب ، وجيء بقوله :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم

شاهداً على أن العرب « كانوا يحبون القتال ، حرقه يحترقونها ويهبون لها لأوهى

الأسباب ، بل بغير سبب أو داع » ^(١)

ولو فُهِمَتِ الحضرة على وجهها الصحيح ، لأُعْفِينَا من هذا التناقض ، ولما احتجنا إلى توجيه النصوص على هذا النحو الذى يمسح فضائل أجدادنا العرب ، بل لرأينا فى مثل تلك النصوص ، إرهاباً شعرياً بتهيؤ العرب للتحويل الخطير ، ولأقررنا لهم بفضائلهم التى أقرها لهم الإسلام واعترف بها النبي صلى الله عليه وسلم ، فى مثل كلمته عن حاتم طي* ، واعتزازه بحلف الفضول . . .

وكان هذا الفهم للحضرة أيضاً ، يعفينا من الاضطراب الألم الذى نشهده فى ذلك الكتاب الرسمى للأدب حين وضع مرثيتين للخنساء فى صخر مع النصوص المختارة من العصر الإسلامى (ص ٢٧٩) ثم أدرج ترجمة حياتها فى باب (الشعر فى العصر الأموى) بعد الأختل وجريرو والفرزدق والكميت ! (ص ٤٠٧) .

أفيكفى هذا بياناً لشدة حاجتنا إلى فهم الحضرة ، ويبرر ذلك الكلام المطول عنها ، من حيث هى إرهاب وانتقال ؟

إن منطق الحضرة لا يحكم مرحلة الانتقال فيما بين شعر الجاهلية والإسلام فحسب ، ولكنه يصدق كذلك على كل مرحلة انتقالية بين عصرين ، أى عصرين .